

رواية فى الظلام لنجيب الكيلانى فى ضوء النقد

صفورا خدارحمى*

تاريخ الوصول: ٩١/٧/٣

تاريخ القبول: ٩٢/٢/١٠

الملخص

تعد الرواية فى العصر الراهن من أهم الأشكال والقوالب القصصية وهى تصوير عن الحياة الواقعية للعصر الذى كتبت فيه و هى تجربة أدبية، تصوّر بالنثر حياة مجموعة من الشخصيات تتفاعل مجتمعه لتؤلف إطاراً عاماً متخيلاً قريباً ممّا يحدث فى الواقع الذى يعيش فيه الكاتب. أما النقد، فقد دخل فى معظم أمور الحياة سواء فيما يتعلق بنقد الأشخاص أو الآراء أو الاتجاهات ودخل أيضاً فى النتاج الأدبى من مقالات وكتب وقصص وروايات للإشادة بما أضافته إلى الأدب وتصحيح ما جادت فيه فى حدود الأخلاق، لأنّ المقصود بالنقد إيضاح الحقيقة وتعديل الخطأ. يحاول هذا المقال أن يقارب فترة زمنية من حياة مصر السياسية والاجتماعية من التى تعدّ قصة كفاحية عاطفية حول فترة تاريخية من حياة مصر السياسية والاجتماعية من خلال رواية «فى الظلام» التى تعدّ قصة كفاحية عاطفية حول فترة تاريخية من حياة مصر أى سنة ١٩٤٧ - ١٩٥٢ م. وقد كتبها/الكيلانى فى زمن اعتقاله سنة ١٩٥٧ م.

الكلمات الدلالية: نجيب الكيلانى، الرواية، الشخصيات، السرد والحوار، الأسلوب، ثورة

يوليو ١٩٥٢ م.

المقدمة

إنَّ الأدب القصصى ذو مجال واسع جداً لعرض الأفكار بكافة أنواعها منها الفلسفية والسياسية والاجتماعية والثقافية وغيرها، فى صورة موحية جداً، بحيث إن القارئ حين يقرأ لهذا النوع من الأدب لا يشعر بأى ملل وتعب؛ والأدب القصصى يشمل أنواعاً عديدة منها الرواية، والقصة، والأقصوصة، والقصة القصيرة و...، والرواية هى من الأعمال المميزة فى الأدب العربى المعاصر. فهناك الكثير من الكتّاب ظهوروا فى مجال كتابة الرواية فى البلاد العربية، مثل طه حسين، وجرجى زيدان، ومحمود تيمور، وتوفيق الحكيم، ومحمد حسين هيكل؛ وقد تأثرت الرواية العربية منذ نشأتها وتطورها بالرواية الغربية إذ إنَّ العديد من مثقفى العرب كانوا يترددون إلى أوروبا وتأثر الكثير منهم بثقافة تلك البلدان فأقبلوا على كتابة القصة والرواية.

وكانت مصر رائدة فى كتابة القصة والرواية فى العالم العربى، وظهر كبار الروائيين فى هذا البلد منهم نجيب الكيلانى.

يعدّ نجيب الكيلانى (١٩٣١-١٩٩٥م) من كبار الروائيين المعاصرين فى العالم العربى وله أعمال عديدة فى مجال القصة والرواية. تعدّ روايته «فى الظلام» قصة كفاحية عاطفية دارت أحداثها فى الفترة ما بين ١٩٤٧-١٩٥٢م؛ وتثير عدداً من القضايا السياسية منها القيام ضد النظام الملكى واستقرار النظام الجمهورى فى مصر. وقد حاولت هذه الدراسة أن تقارن حياة مصر وفترة من حياة نجيب الكيلانى أى المرحلة الزمنية بين ١٩٤٧-١٩٥٢م مقارنة نقدية من خلال رواية «فى الظلام».

إن السبب الرئيسى لاختيار هذه الرواية للبحث هو أولاً إنَّ هذه الرواية لم تعرض لأى دراسة نقدية، ثانياً عنوانها المثير الذى استوقفنى لقراءتها غائصة فى أعماقها، ثمَّ جدّة الرواية وجمالها وبروزها من خلال تناولها قضية ثورة يوليو ١٩٥٢م كفكرة لها. وكان المنهج فى إعداد هذا البحث، المنهج الاستقرائى التحليلى النقدى، بحيث تمت قراءة الرواية قراءة متفحصة مع التركيز على الجوانب التى تناولها خلال البحث.

التعريف بالمؤلف والاديب الاسلامى نجيب الكيلانى

ولد نجيب الكيلانى فى أول حزيران (يونيو) عام ١٩٣١م بقرية شرشابة من أسرة تعمل فى الزراعة فى الريف المصرى وفى سن الرابعة دخل مكتب تحفيظ القرآن، حيث تعلم القراءة والكتابة والحساب وقدرأ من الأحاديث النبوية وسيرة الرسول (ص) وقصص الأنبياء وقصص القرآن (الكيلانى، ١٩٨٧م، ج ١: ٢٨)، ثم التحق بالمدرسة الأولية بقرية سنباط ثم انتقل إلى مدرسة الإرسالية الأمريكية الابتدائية بقرية سنباط التى تبعد عن قريته خمسة كيلومترات وفى هذه المدرسة تعلم اللغة الإنجليزية، فاستطاع أن ينال شهادة المرحلة الابتدائية (المصدر نفسه: ٣٨)، ثم لمواصلة دراسته التحق بمدرسة «كشك الثانوية» بمدينة زفتى التى تقع على شاطئ نهر النيل ولكن لم تطل إقامته فى زفتى سوى فترة لا تتجاوز شهرين (المصدر نفسه: ١٠٦ - ١١١) وانتقل إلى مدرسة ثانوية بطنطا عاصمة محافظة الغربية (المصدر نفسه: ١١٠) وقضى الكيلانى هناك المرحلة الثانوية، ثم التحق بكلية القصر العينى (جامعة القاهرة) عام ١٩٥١، وفى السنة الرابعة بالكلية عندما سافر إلى قريته أواخر يوليو ١٩٥٥م اعتقل ونقل إلى القاهرة وقدم هناك للمحاكمة فى إحدى القضايا السياسية وحكم عليه بالسجن عشر سنوات، وفى تلك الفترة جمع ديوانه الشعرى الأول «أغانى الغرباء» ثم انتقل إلى السجون المتعددة منها أسبوط وقضى أيام إدانته هناك، وفى سجن أسبوط بدأت المرحلة الثانية من حياته أى مرحلة كتابة الرواية (الكيلانى، ١٩٨٥م: ٢١)، وكتب هناك روايته الأولى «الطريق الطويل» وأيضاً روايته التاريخية الأولى «طلائع الفجر». فى هذه الفترة من حياته قد حازت آثاره المختلفة بجوائز فى المسابقات، منها:

روايته «الطريق الطويل» التى فازت بجائزة وزارة التربية ونشرتها وزارة الثقافة والإرشاد آنذاك وقدمها له وزيرها المرحوم فتحى رضوان، وكتابه «إقبال الشاعر الشاعر» فاز بجائزة التراجم والسير عام ١٩٥٧م (القاعود، ٢٠٠٧م: ٨٢).

وفى مجال الدراسات النفسية والاجتماعية فاز كتابه «المجتمع المريض»، وهو دراسة متميزة عن مجتمع السجون، وفى مجال الرواية فازت قصة «فى الظلام» بجائزة وزارة التربية والتعليم، كما فاز بجائزة جريدة الشباب المسلمين، وأيضاً فاز بجائزة المنتدى كتاب الرواية والأدباء ونال بالمداية الذهبية المهداة من الدكتور طه حسين. قضى

الكيلاى بثلاث ونصف من أيام إدانته، ثم انطلق من السجن وعاد إلى كلية الطب لإكمال دراسته، وبعد ذلك ترك مصر وذهب إلى أبو زعبل لمعالجة المعتقلين الذين كانوا يعملون هناك فى سكة الحديد(المقرى الإدريسى، ١٩٩٦م: ١١).

استمر الكيلاى فى كتابة الرواية فى الجامعة وفى أبو زعبل وفازت روايته «اليوم الموعود» بجائزة المجلس الأعلى للفن والأدب وتفوق بأخذ الجائزة من يد جمال عبدالناصر(حسن عبدالله، ١٩٩٦: ٣٢). فى عام ١٩٦٥م قمعت حكومة جمال عبدالناصر حزب الإخوان المسلمين مرة أخرى وحبس أعضاءها ومنهم نجيب الكيلاى. واستمر الكيلاى نشاطه الأدبى فى السجن حتى أطلق منه بعد سنة ونصف و كان هذا الإطلاق، انتهاء أيام اعتقاله إلى الأبد.

عاد الكيلاى إلى وطنه بعد عشرين عاماً، فاستمر بنشاطه الأدبى بعد عودته إلى مصر ولكن مرضه صار سبباً للحد من نشاطه الأدبى. «أصيب بسرطان الكبد، أدخل المستشفى التخصصى بالرياض على حساب خادم الحرمين الشريفين، وفى الخامس من شوال ١٤١٥ق الموافق للسادس من آذار ١٩٩٥م، توفى الدكتور الأديب نجيب الكيلاى ودفن بمصر.

له ٤١ رواية و٧ مجموعات قصصية و٤ مسرحيات و٨ دواوين شعرية و٢٨ دراسة نقدية وأدبية، وترجم كثير من رواياته إلى اللغات المختلفة.

رواية «فى الظلام» دراسة فى الشكل أحداث الرواية

إنّ الحدث يعتبر العمود الفقري فى الرواية، إذ الحدث يرسم حالات الشخصيات ومشاعرها وبتنوع الأحداث وتطورها يخوض القارئ فى قراءة الرواية؛ وبعد سرد الأحداث يبقى أثر تركه القصة فى نفس القارئ، وهذا الأثر هو العنصر السائد فى القصة، وقد تكون السيادة للأحداث أو الشخصيات أو البيئة أو الفكرة. إذن يرتبط الحدث بالشخصية فى الأعمال القصصية ارتباط العلة بالمعلول وعلى هذا: «فإن الرواية تساوى الفعل(الحدث) علاوة على الفاعل(الشخصية)؛ الحدث إذن شىء هلامى إل أن تشكله الشخصية - بحسب حركاتها- نحو مسار محدد يهدف إليه الكاتب»(وادى، ١٩٩٢: ٢٨).

فى هذه الرواية دارت الأحداث فى قرية شرشابة بمصر وتدور أيضاً أغلب أحداثها فيما بعد فى السجن الحربى، فى فترة ما بين ١٩٤٧-١٩٥٢ م، فترة اهتزاز فى القيم واضطراب فى المفاهيم وارتباك فى شتى الشؤون السياسية والاجتماعية والوجدانية. تبدأ القصة عندما عزم فريد وهو شخصية الرواية الأصلية على الذهاب إلى القاهرة لالتحاقه بأصدقائه الذين كانوا يعملون على إسقاط النظام الملكى وإقامة جمهورية مصرية مستقلة. كان فريد من أهالى شرشابة، يدرس فى كلية الحقوق بالقاهرة، أبوه *الحلوانى* يعمل فراشاً فى المدرسة الأولية بالقرية منذ سنوات عدّة، وعرف خلالها بالأمانة والإخلاص فى عمله؛ أما أم فريد حميدة فهى كانت تعمل فى بيوت المرقهين وتغسل ملابس الناس.

فى بداية الأمر واجه فريد مخالفة أمه لعزمه على الذهاب إلى القاهرة، ولكنّه رغم مخالفة أمه كان لابدّ أن يذهب مع صديقه عبدالمجيد إلى القاهرة لأهميّة الموضوع لكنّه قبل أن يذهب إلى القاهرة اضطرّ بأن يخطب نهيرة لنفسه لأسباب عدة، ثمّ ذهب عبدالمجيد نفسه إلى القاهرة، وقرّر فريد فيما بعد أن يذهب إلى القاهرة وكانت أخته ريحانة معه، ليجد سريراً خالياً فى القصر العينى وتتاح لها فرصة للعلاج، لأنّ أخته جزءاً حساساً من جسمها كان قد أصيب بالسرطان؛ ثمّ تمرّض فريد ريحانة فى فراشها وانصرف إلى الشيخ بسطويسى وأصدقائه الآخرين الذين كانوا يعملون على إسقاط النظام الملكى شارحاً لهم كلّ ما حدث له فى شرشابة.

مضى على وجود فريد *الحلوانى* فى القاهرة أسبوع حتى التقى بالضابط فرحات الذى كان له العتاب العنيف واللوم الحاد على غفلته وإهماله عن تكاليفه وتأخيريه عن الحضور فى القاهرة فى الموعد المقرّر. فى اليوم الذى كان فرحات يتكلّم مع فريد فى بيت بسطويسى حول وظائفه الخاصة، دخل عبدالمجيد إليهما وكان على غير عادته مضطرباً مصفر الوجه وغاصت عيناه بالدموع، وقف فريد جامداً لمرآه، بينما تقدّم إليه فرحات فى خطوات ثابتة، باحثاً عما حدث فى وجهه وأثار ارتبাকে؛ فى البداية ظنّ فرحات بأن بسطويسى لعله يكون قد قبض عليه، لأنه لم يعد من مهمته منذ الصباح؛ أما عبدالمجيد فيخبره بأن أخت فريد ريحانة قد ماتت فى المستشفى؛ مرّ نصف ساعة على هذا الخبر المفجع، وفرحات وعبدالمجيد وفريد جلسوا يدبرون أمر راحلة ويفكرون فى طريقة نقلها

إلى شرشابة، لكن هناك ضجة واضحة وخطوات متلاحقة سريعة تدب على السلم، ورغم ذلك فالثلاثة لا يهتمون كثيراً بما يسمعون، إنهم مستغرقون في المصيبة التي حلت بفريد؛ ففتح باب الشقة بعنف ودخل جنود إلى شقة بسطويسي لأن بسطويسي كان قد اعتقل. انفلت بعض الجنود هنا وهناك يفتشون الأثاث، ثم عثروا على بعض الأوراق الخاصة.

تم اعتقال فرحات وبسطويسي وفريد وعبدالمجيد؛ كان فريد يجلس في جو السجن الكئيب في شبه ذهول ويهمس في حزن: «الحرية... الآن استطيع أن أهتف بها في شوق وإلحاف وتقدير لحقيقتها»، إنه لم يستطع أن يتحمل السياط التي كانت تهوى على قدميه وعلى جسده، والمفاجآت التي واجهه بها؛ إنها المؤامرة الكبرى التي سمّوها ضدّ الملكة. في يوم ذهب فريد إلى مكان تحقيق، حينما وصل إلى حجرة التحقيق أحاطوا به المحققون، فوقف بينهم منكس الرأس، ممزق الثياب؛ ثم نظر أطراف الحجرة لعله يرى أحداً من زملائه، فوجد بسطويسي يقف في أقصى الغرفة والدم يلوث ثيابه والعناد والإصرار يرتسم على وجهه وفي عينيه؛ أما عبدالمجيد فقد ارتمى أرضاً وقد ازداد شحوباً ونحولاً، ولكن فرحات لم يكن موجوداً هنا. أخذ المحققون يسألون فريد غير أنه لم يعترف بشيء، وعندما رأى فريد تعذبات فوق طاقته، اعترف بكل ما سئل عنه في أثناء التحقيق، بينما بسطويسي يسعى أن يمنعه عن هذا العمل، ثم في السجن مات عبدالمجيد على أثر ارتفاع في درجة حرارته وعلى أثر التعذبات التي واجهها أثناء التحقيق.

في النهاية تألفت لجنة قانونية للنظر في القضايا السياسية وتقرير العفو عن مستحق...، وأخيراً أطلقوا المسجونين السياسيين من السجن. كان فريد قد نسي ذكريات نهيرة التي كانت سبب جنونه ومشكلاته في السجن وتركت في قلبه جرحاً...، وأخيراً انطلق كل واحد من الأصدقاء إلى داره، مع خطواتهم المبتعدة وعواطفهم الجياشة، يحسون بشيء سحري غامض يجذبونهم ويجمعهم عند نقطة واحدة، إنها ذكريات الأيام القاسية الرهيبة وقصة القيود العاتية التي أذابتها حرارة الإصرار والإيمان. يلاحظ أنّ الأحداث تأتي في الرواية على تسلسل منطقي، وتسلسل الأحداث بصورة منطقية تدلّ على وجود الحبكة الفنية للرواية، وفي هذه الرواية أثرت الأحداث تأثيراً

خاصاً على شخصيات القصة خاصةً على فريد الشخصية الأصلية ومن هذه الأحداث: حادثة موت أخت فريد فى القصر العينى؛ حادثة اعتقال فريد وأصدقائه والحكم عليهم بالسجن لمدة عشر سنوات؛ حادثة موت عبدالمجيد فى السجن وفى إثر تعذيبات شديدة؛ حادثة طلاق نهيرة من فريد وزواجها من عبدالرحمن أفندى، وكانت هذه الحادثة قاسية على فريد.

شخصيات الرواية

شخصيات القصة «هم الذين يدور حولهم الأحداث، أو هم الذين يفعلون الأحداث ويؤدونها» (زغلول سلام، ١٩٧٣: ١٤). إذا أراد الكاتب أن يعبر عن قضايا مجتمعه لابد له من استخدام شخصيات روائية، ويستمد الكاتب شخصياته من عدد من مصادر، ويتخذ هذه الشخصيات من البيئة التى يعيش فيها، أو «إنه قد سمع بها ولم يرها، أو قرأ عنها فى صفحات الكتب والمجلات، وقد تكون متخيلة لاتعيش إلا فى خيال الكاتب فحسب، وقد يستقيها الكاتب من شخصيته، بحيث تمثل جانباً أو أكثر منها، وقد تعكس نظرته للحياة، ولابد للكاتب أن يشارك خياله فى رسم الشخصيات» (يوسف نجم، ١٩٧٩: ٧٥-٧٦).

إنّ هناك نوعين من الشخصيات نجدها فى جميع الروايات وهى: الشخصية الأساسية والشخصية الثانوية. أما الشخصية الأساسية أو الأصلية فهى محور لكل ما يقع فى القصة من الأحداث، وهى أيضاً «الشخصية التى لاتبدو للقارئ فى الصفحات الأولى، بل تتكشف شيئاً فشيئاً، وتتطور بتطور القصة وأحداثها وتنمو مع تغيير الأحداث، ويكون تطورها غالباً نتيجة تعاملها مع هذه الحوادث» (وادي، ١٩٩٢: ٢٧).

أما الشخصية الثانوية فهى وظيفتها إكمال الإطار القصصى وربط الأجزاء بعضها ببعض ومساعدة فى المواقف المختلفة. وللشخصيات الثانوية فائدة كبيرة فى نظر الكاتب والقارئ، ومما يسهل عمل الكاتب دون شك لأنه يستطيع بلمسة واحدة أن يقيم بناء هذه الشخصية التى تخدم فكرته طوال القصة، وهى لاتحتاج إل تقديم تفسير... والقارئ يجد فى مثل هذه الشخصيات بعض أصدقائه ومعارفه الذين يقابلونهم كل يوم» (يوسف نجم، ١٩٧٩: ١٠١).

و من يقرأ رواية «فى الظلام» يتضح له مباشرة أن فريد هو الشخصية الأصلية فى الرواية، حيث أن الأحداث لها تدور حوله وهو محورها، لأن الرواية بدأت بفكرة رحيله إلى القاهرة لالتحاقه بأصدقائه الذين كانوا يعملون على إسقاط النظام الملكى. أما الشخصيات الثانوية فى الرواية فكانت كثيرة كأم فريد وأبيه الذى كان يظهر تارة ثم يخفى؛ وشخصية عبد الرحمن أفندى الذى كان سبباً فى طلاق نهيرة من فريد. وكذلك شخصية بسطويسى الذى كان صديقاً لفريد وعبدالمجيد.

السرد والحوار

يعدّ السرد والحوار من أهم عناصر العمل القصصى، فى الحقيقة الحديث عن السرد والحوار يكون بمعنى الحديث عن الوعاء اللغوى الذى يحتوى على كل عناصر القصة. إن هذا العنصر من عناصر الأسلوب القصصى خطير جداً وهو يحتوى على كل العناصر المهمة داخل الرواية من الأحداث والشخصيات والأمكنة والأزمنة فى إطار اللغة، لهذا «ينبغى أن يسير أسلوب السرد موازياً بدقة لمستوى حركة الحدث والمستوى الفكرى للشخصية، لأن الكاتب ينوب فى السرد عن شخصياته، بعبارة أخرى يصف بالنيابة عنهم ما يفعلون وما يدور حولهم» (وادى، ١٩٩٢:٤٠). إذن للغة وللضمائر التى يستخدمها الروائى فى سرد الأحداث دور هام، وغالباً يستخدم الكاتب الضمائر بصيغة المتكلم أو الغائب.

أما سرد الأحداث بصيغة ضمير الغائب فهو أفضل أسلوب عند أكثر الكتّاب ومنهم نجيب الكيلانى، وعند قراءة رواية «فى الظلام» يتضح لنا أن الكيلانى يستخدم عادة ضمير الغائب فى سرد أحداث روايته، كما يبدأ روايته بوصف حارة فريد ثم ينطلق منها الكاتب ويدخل إلى حوادث الرواية ويقدمها بأسلوبه الخاص.

والحوار هو ما يدور من الحديث بين الشخصيات فى القصة أو المسرحية فهو حديث بين شخصية وشخصية، أو بين شخصيات وشخصيات أخرى داخل العمل الروائى يكشف الكثير من الأحداث وأعماق الشخصيات، يبلور المواقف ويطرح التساؤلات والتصورات، ويجسد فى كل الأحوال وسائل الحركة والنمو الروائى. وليؤدى الحوار دوره الوظيفى

بنجاح «يجب أن يندمج فى صلب القصة، حتى لا يظن القارئ أنه دخيل عليها، ويكون طبيعياً سلساً رشيماً، مناسباً للشخصية وللموقف» (يوسف نجم، ١٩٧٩: ٩٧). ومن خلال استقرائى لهذه الرواية، ظهر لى الحوار معبراً عن شخصية قائله - من خلال حوار مع الغير - ودافعاً للأحداث ومصوراً للأفكار والمشاعر.

الزمان والمكان

«بيئة القصة هى حقيقتها الزمانية والمكانية، أى كل ما يتصل بوسطها الطبيعى، وبأخلاق الشخصيات وشمائلهم وأساليبهم فى الحياة» (يوسف نجم، ١٩٧٩: ١٠٨). إذن فبيئة القصة هى زمان وقوع الأحداث ومكانه، وتصور هذه البيئة الطبيعية وطريق حياة الشخصيات وأعمالهم وأخلاقياتهم، وأيضاً الزمان الذى يعيشون فيه.

الزمان

يعتبر الزمان عنصراً بنائياً هاماً فى جميع فنون القصص، فعليه تترتب عناصر التشويش والاستمرار وضرورة الأحداث الروائية المتتابعة، ومن منظومة لغوية معينة تعتمد على الترتب والتتابع والتواتر والدلالة الزمنية، بغية التعبير عن الواقع المعيش (مبروك، ١٩٩٨: ١٠).

فى رواية «فى الظلام» يتجلى عنصر الزمن بصور متعددة وهذا الزمن محدود ومعاصر للكاتب تقريباً، ويقول الكاتب نفسه فى مقدمة الرواية بأن أحداث هذه الرواية الكفاحية تتناول فترة زمنية ما بين ١٩٤٧-١٩٥٢ م؛ وفى تصوير الزمن فيها، حين يعين الكاتب نقطة بداية القصة، يمضى فى رسم أحداث الرواية من خلال الزمن بشكل تدريجى، كما أن حركة الزمن فيها يبدأ بذهاب فريد إلى القاهرة لالتحاقه بأصدقائه. الملاحظ فى الرواية أن الكاتب يستخدم لتصوير حركة الزمن عبارات تدلّ على تقدم الزمن فيها، منها غروب الشمس وهو يصفه بصورة جميلة فى بداية الرواية وغداً وفى اليوم التالى ومن الثالثة بعد الظهر وهذا الأسبوع واللييلة الماضية وعند الفجر والشهرين و

المكان

المكان هو عنصر من عناصر البناء القصصى وله أهمية كبيرة فى القصة، إذ هو «المحيط الذى الأحداث تجرى فيه وتتحرك الشخصيات خلاله» (مريدن، ١٩٨٠: ٢٨). يختلف الروائيون فى رسم البيئة المكانية لرواياتهم، «منهم من يؤثر الوصف الدقيق مبرزاً أدق التفاصيل، من شوارع وبيوت وأزقة وأثاث وملابس، مما فى ذلك من الكشف عن حياة الشخصية الاجتماعية وتبعدها الفكرى والثقافى، ومنهم من يذكرها ذكراً عابراً «لا يهتم بخصائصها، ويكتفى بالوصف العام السريع» (يوسف نجم، ١٩٧٩: ٩١). و بالنسبة لوصف المكان فى كثير من الروايات، يتأرجح الكتاب لقصصهم الأمكنة والأحياء الشعبية كقرية أو مدينة، كما نجد منها فى روايات نجيب الكيلانى.

لقد اختار نجيب الكيلانى فى رواية «فى الظلام» الأمكنة المختلفة لوقوع أحداث روايته، منها شرشابة والقاهرة والقصر العينى والسجن الحربى ومستشفى الأمراض العقلية؛ ولكن يلاحظ أنّ قسماً كبيراً من أحداث رواية «فى الظلام» تجرى فى القاهرة وفى السجن الحربى الذى اعتقلوا فيه أعضاء الحزب الذى كانوا يعملون ضد النظام الملكى.

دراسة فى المضمون

يعود اهتمام الانجليز بمصر إلى وقت مبكر جداً، عندما كانت الإنجليز سيده بحار بلا منازع، وكانت تجارتها رائجة فى جنوب شرق آسيا والهند، وكانت طرقها التجارية تمرّ عبر الأراضى المصرية. وزاد اهتمام الإنجليز بالمنطقة أكثر بعد حفر قناة السويس.

وقد بدأت الانجليز بعد خروج الفرنسيين من مصر سنة ١٨٠١م، تخطط لاحتلال البلاد وساعدتها قضية الديون الأجنبية التى تورط فيها حكام مصر من أسرة محمد على، على تنفيذ خططها تدريجياً حتى تمكنت أخيراً من بسط نفوذها على المنطقة سنة ١٨٨٢م.

وعند قيام الحرب العالمية الأولى، انتهزت الانجليز فرصة دخول تركيا الحرب ضدها فى نوفمبر ١٩١٤م، وأعلنت وضع مصر تحت حمايتها بتاريخ ١٨ ديسمبر ١٩١٤م. وقد واجه الشعب المصرى هذا الاحتلال بمختلف الأساليب ونشطت الحركة الوطنية التى تمثلت خاصة فى «الحزب الوطنى» الذى أسسه مصطفى كامل سنة ١٩٠٧م و«حزب

الوفد» مع صحوة الشعب فى ثورته الكبرى بزعامة سعد زغلول سنة ١٩١٨م (شلبى، ١٩٨٦: ٥٢١). وقامت هذه الأحزاب بتعبئة الشعب المصرى ضد الاحتلال الانجليزى، وتوجه هذا النشاط بقيام ثورة يوليو ١٩١٩م التى كانت تطالب بالاستقلال التام وبجلاء الجيش الانجليزى (المصدر نفسه: ٣٩٦).

واستمرّ النضال حتى حصلت مصر على اعتراف الانجليز بإلغاء انتدابها على مصر بموجب معاهدة ١٩٣٦م.

كما تعتبر هذه المعاهدة نقطة تحول حاسمة فى تاريخ مصر المعاصر، كما كانت بداية الانهيار السياسى الذى جعل قيام ثورة ١٩٥٢ م حتمية تاريخية.

ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ م، أسبابها وعواملها

عرفت هذه الثورة فى البداية بالحركة المباركة ثم أطلق عليها فيما بعد لفظ ثورة ٢٣ يولية. «كانت ثورة ٢٣ تموز فى مصر عام ١٩٥٢م تشكل منعطفاً تاريخياً لهذا البلد وفى تاريخ الوطن العربى» (شعيب، ٢٠٠٥: ٢٧٣) ولقد كانت «استجابة طبيعية لوجود أزمة اجتماعية سياسية حادة فى داخل مصر» (المصدر نفسه: ٢٧٥).

هناك عدة عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية، ساعدت على قيام الثورة المصرية ١٩٥٢، أهمها:

١. استمرار الاحتلال الإنجليزى لمصر والتدخل فى شؤون مصر الداخلية بعد معاهدة ١٩٣٦م.

٢. هزيمة مصر فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨م وأثرها على شعب مصر.

٣. استبداد وظلم الملك فاروق وفساد الحكم.

٤. سوء أوضاع مصر الاقتصادية والاجتماعية.

هذه الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية كانت كافية لقيام الثورة ومواجهة السيطرة الداخلية المستغلة من ناحية والسيطرة الخارجية المعتدية من ناحية أخرى.

و بعد حرب ١٩٤٨ و ضياع فلسطين فى يناير عام ١٩٥٠م، مجموعة من ضباط الجيش باسم الضباط الأحرار، اجتمعت لاختيار رئيس لهم، وتمّ اختيار الرئيس جمال عبدالناصر رئيساً بالإجماع، ثمّ قام بالثورة بزعامة جمال عبدالناصر.

قامت ثورة ١٩٥٢ م على مبادئ ستة، فهي كانت عماد سياسية للثورة، وهي:

١. القضاء على الإستعمار وأعدائه

٢. القضاء على الإقطاع وسيطرة رأس المال

٣. القضاء على الاحتكار

٤. إقامة عدالة اجتماعية سليمة

٥. إقامة جيش وطنى قوى

٦. إقامة حياة ديمقراطية سليمة (شلبى، ١٩٨٦: ٣٤٣).

هذه المبادئ والأهداف الستة التى صاغها جمال عبدالنصر هى التى حددت معالم الطريق أمام ثورة يوليو، ووضعت الحلول للمشاكل القاسية التى كان يعانىها المجتمع المصرى عند قيام الثورة، وتنقل مصر من عهد الإقطاع والاستغلال إلى عهد تسوده المبادئ الإشتراكية ومبادئ الحرية والعدالة الاجتماعية، وبذلك كانت ثورة ١٩٥٢م فى جوهرها وحقيقة أمرها ثورة سياسية اجتماعية.

يصور الكيلانى من خلال رواية «فى الظلام» أوضاع مصر قبل قيام ثورة، وصور أيضاً مجموعة من الوطنيين الذين يعملون جاهدين لتغيير النظام الملكى وإقامة الجمهورية المصرية المستقلة.

ملك لشعب مصر

كان الملك الحاكم على مصر، ملكاً فاسداً مجنوناً يدوس أطهر المقدسات وبعث بأسمى ويطأ أنبل العواطف، إنه كان يبيع أمته ويسرق الزوجات وكان يحمى اللصوص والخونة والمرتشين. يصور لنا الكيلانى حياة هذا الملك من خلال حوار شخصيات روايته وتتجسد رؤية الشعب المصرى تجاه الملك فى حوار جرت بين فريد وعبدالمجيد:

- حدث بالأمس أن رأيت صورة عابرة قد تكون تافهة، ولكنها يا عبدالمجيد قد لفتت نظرى إلى حقيقة هامة.

- ماذا حدث؟

- ثرثرة أطفال على شاطئ الترعة. أحدهم يقول: من منكم يستطيع أن يقفز هذه الترعة؟

- فردة عليه آخر: مستحيل، ولا ملك.
- فردة ثالث: الملك، إنه يستطيع أن يقفزها وبل أكبر منها.
ثم دار حديث بين الأطفال على نحو مختلط بلانظام أو منطوق، ممتزجاً بصريخهم
وضحكهم:

- كم جنيهاً مرتب الملك يا أحمد؟
- مائة جنية!
- ألف جنية يا عبيط.
- إنه يأكل فى كل أكله خروفاً...، ولبس الملك جوخ وحرير...
- من يغلب؟؟ الملك أم ربنا؟
- من يغلب؟؟ الملك أم ربنا؟
- لا أعرف.
- ربنا لابد أنه يغلب الملك يا عبيط(الكيلانى، ١٩٥٧: ١٨-١٩).
الملاحظ كيف سيطر الوهم على عقول أجيال شعب مصر، إن منطوق هؤلاء الأطفال
فى سذاجة وبساطة لهو الحقيقة بعينها، هم أبناء الشعب الجائع العارى الذى يؤلمه
الملك ويرهبه رهبة شديدة. نعم، كان شعب مصر آنذاك شعب مسكين، لا يذكر الملك
إلا وذكر
معه الجوخ والحرير والأكلات الدسمة والسياف الذى يفصل الرقاب عن أجسادها.

مداهنة زعماء الاحزاب فى مصر

إن من المشاكل الهامة التى كان سبب طغيان الملك واستهاره فى أمور البلاد هى
استعمار واستقرار الانجليز فى مصر، وخاصة فى منطقة القنال دون أى مخالفة من ناحية
زعماء الأحزاب، كما كان لهؤلاء الزعماء سياسة مداهنة أمام هذه القوات، إنهم كما يقول
الكاتب فى «فى الظلام» من لسان أحد شخصياته يقبلون الأحذية التى تركلهم،
ويتمسحون باليد التى تصفعهم مادامت تنثر لهم الذهب، وتنعم عليهم بالسلطة الموهومة
التي يعلمون بها الشعب كيف يألف الذل والهوان(المصدر نسه: ٦٩).

فقدان العدالة الاجتماعية

مسألة فقدان العدالة الاجتماعية فى مختلف شؤون حياة شعب مصر هى من المضامين الهامة التى تبرز خلال الرواية، يمكن أن يرى نموذج منها فى محاكمة فريد فى السجن بعد إنجاز عمله الممنوع، وهو كان يقضى عدّة أيام فى التأديب انتظاراً للمحضر والعقاب الذى سيرد من الديوان، أما أنه فكان قد ينسى أنّ كلمة قانون لا وجود لها إلّا فيما يؤخذ منه، أما عندما يطالب بحق من الحقوق، فلا قانون ولا لائحة بل الجلد والضرب والإهانة البدنية والنفسية... وهكذا جلدوه أتر من الاثنى عشرة جلدة التى حكم عليه المحضر.

الجهل بين الناس

كان واضحاً من خلال الرواية إنّ من أهم أمراض المتفشية بين الناس، فى تلك الفترة هى الجهل بالنسبة إلى الأمور والحوادث التى كانت تجرى حولهم، ونجيب الكيلانى يصور هذا المضمون من خلال سرده فى الرواية وهى واضح فى حوار فريد وبسطويسى:

- أجل يا فريد، نحن نعيش فى الظلام، ويجب أن تكون هذه الحالة مدعاة إلى إصرارنا وتضحياتنا حتى نحمل المشعل لشعبنا... وعلى ضوء هذا المشعل سينظر الناس الحقيقة.

- أعتقد أنّ هناك من يجهلون الحقيقة؟

- لا شك أنّ الجهل أخطر الأدواء فى بلدنا.

- يؤسفنى يا بسطويسى أن أقول لك إنّنا فى أمة ميتة، ترى الحق ثمّ تحيد عنه دون استحياء أو خجل، يسيرها الوعد والوعد.

- إنك تهذى ولا شك، كيف سولت لك نفسك أن تنطق بمثل هذا الكلام؟

- إنها المرارة التى نقاسيها فى شتى مرافق حياتنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية!

- إنى أومن معك بأنّ هذه المرارة مرض طارئ وليست داء أصيلاً(المصدر نفسه:

هكذا كانت فترة ١٩٤٧-١٩٥٢ م التى دارت فيها أحداث هذه القصة الكفاحية العاطفية، فترة اهتزاز فى القيم واضطراب فى المفاهيم وارتباك فى الشؤون السياسية والاجتماعية والوجدانية، ولكن الحقيقة الكبرى هى إن الشعب المصرى كان شعباً حياً وكان مُصراً على النصر، لهذا بدأ كفاحه على أساس واع فاهم لمشاكل، وأخذ يتلمس كل طريق، يلهث بحثاً عن النور ومن حياة أفضل وهو كان ناجحاً فى ذلك.

نتيجة البحث

لقد توصل هذا المقال من خلال أجزائه إلى نتائج أهمها ما يلى:
أ. قد عاش نجيب الكيلانى فى مجتمع مفعم بالأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لذلك فإن هذه الأحداث والقضايا دفعته إلى كتابة هذه الرواية وروايات أخرى، تنجم عن ظروف المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى تلك الفترة الزمنية.

ب. إن المجتمع عند الكيلانى خلال سنوات عديدة كان مليئاً بالفساد والأمراض المختلفة، وظلم وطغيان النظام الملكى بدلاً من الطمأنينة والهدوء، والشعب فى ذلك الزمن يعانى من متاعب كثيرة لا حدود لها.

ج. كان نجيب الكيلانى فى تقديم بناء روايته «فى الظلام» ناجحاً، كما كان ناجحاً فى تقديم الشخصيات من البعد الداخلى والخارجى وتحديد الأماكن والأزمنة، وإنه قدم روايته بلغة بسيطة وأسلوب فاخر.

المصادر والمراجع

- زغلول سلام، محمد. ١٩٧٣م، **دراسات في القصة العربية الحديثة**، الإسكندرية: دار المعارف.
- زكى أحمد، صلاح. ١٩٨٧، **مصر والمسألة الديمقراطية**، الطبعة الأولى، لبنان: مؤسسة المفيد.
- شليبي، أحمد. ١٩٨٦م. **موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية**، الطبعة السابعة، المجلد الخامس، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- عبدالعزیز عمر، عمر. ١٩٩٠م، **دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر**، بيروت: دار النهضة العربية.
- علوش، سعيد. لا تا، **معجم مصطلحات الأدبية المعاصرة**، الطبعة الأولى، بيروت: دار الفكر اللبناني.
- على، عبدالمنعم. ٢٠٠٥، **التدخل الأجنبي وأزمات الحكم في تاريخ العرب الحديث والمعاصر**، الطبعة الاولى، بيروت: دار الفارابي.
- الكيلاى، نجيب. ١٩٨٥م، **رحلتى مع الأدب الاسلامى**، الطبعة الاولى، بيروت: مؤسسة الرسالة.
- ١٩٥٧م، **في الظلام**، الطبعة الاولى، بيروت: مؤسسة الرسالة.
- ١٩٨٧م، **لمحات من حياتى**، ج ١ و ٢، لا ط. بيروت: مؤسسة الرسالة.
- مبروك، عبدالرحمن. ١٩٩٨م، **بناء الزمن في الرواية المعاصرة**، لا ط، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- مريدن، عزيزة. ١٩٨٠م، **القصة والرواية**، لا ط، دمشق: دار الفكر.
- وادی، طه. ١٩٩٢م، **دراسات في نقد الرواية**، الطبعة الثالثة، القاهرة: دار المعارف.
- يوسف، نجم. ١٩٧٩م، **فن القصة**، الطبعة السابعة، بيروت: دار الثقافة.